مدن الحضارات
فى القديم والحديث
للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

— ٤ —

كانت حفلات الفاطميين فى القاهرة موصولة لا تنقطع العام كله . ولقد صورها المؤرخون للعاصرون صوراً تنقل إلينا حقائق كثيرة عنها ، ومن هؤلاء المؤرخين أبو محمد الحسن ابن زولاق مؤرخ المعز لدين الله وصاحب سيرته ، وابن الطوير الذى يأخذ المقريزى عنه كثيراً فى خططه ، والمسبحى صاحب التاريخ الكبير ، وابن عبد الظاهر وغيرهم .

وكانت القاهرة فى عهد الفواطم تزخر بالقصور الكثيرة والدور المختلفة . ومن القصور التى وردذ كرها فى كتب الخطط : القصران الكبير والصغير ، والقصر اليافعى ، وقصر الذهب ، وقصر الأقيال ، وقصر الظفر ، وقصر الشجرة ، وقصر الشوك ، وقصر الزمرد ، وقصر النسيم ، وقصر الخريم ، وقصر البحر

ومن الدور المشهورة عندهم دار الضيافة ودار الوزارة ودار الضرب ودار الذهب ودار الملك

ومن المناظر التى كثرت فى عهدهم منظرة اللؤلؤة . وكانت تقع على الخليج ، ومنظرة الغزالة ، ومنظرة المقس ، ومنظرة الدكة ، ومنظرة السكرة .

والقصر الكبير يسمى المعزى نسبة إلى المعز لأنه هو الذى أمر جوهراً ببنائه حينما زايل مع عسكره شمالى أفريقية إلى مصر . ويقول المقريزى إن هذا القصر من ترتيب المعز ورسمه ، وإن جوهراً لم يكن فى البناء والتعمير إلا منفذاً لتصميم مولاه . ويجد القارئ وصف هذا القصر وصفاً تفصيلياً فى الخطط مما ليس هذا موضع الإفاضة فيه . إلا أن شيئاً واحداً يطيب ذكره فى هذا الموضع ، وهو مد البساط فى شهر رمضان ، وكيف كان يجتمع فيه قاضى القضاة والوزير والأمراء يأكلون الطعام الهنئ ويشربون الشراب المرئ ويقدم إليهم الماء المبخر فى كيزان الخزف .

وكان لعيد الفطر مثل هذا البساط ومثله فى عيد النحر ، وكانت القاهرة المعزية تشهد هذه الحفلات فى فرح عظيم

ولا نجد أحلى فى هذا المقام من تدوين أبيات من القصيدة التى رثى بها عمارة اليمنى الدولة الفاطمية ، وودع مكارمها وأيامها وحفلاتها وعاداتها ، وشيّع فيها السنن الجميلة التى استنوها لإحياء عيد أو إقامة شعيرة أو توديع جيش أو فتح خليج ، فقال :

دار الضيافة كانت أنس وافدكم
واليوم أوحش من رسم على طلل

وفطرة الصوم إن أسفت مكارمكم
تشكو من الدهر حيفاً غير محتمل

وكسوة الناس فى الفصلين قد درست
ورث منها جديد عنهم وبلى

ويوم كان فى كسر الخليج لكم
بأنى تجملكم فيه على الجمل

وأول العام والعيدان كان لكم
فيهن من وبل جود ليس بالوشل

والأرض تهتز فى عيد النثير بما
يهتز ما بين قصريكم من الأسل

والخيل تعرض فى وشى وفى شية
مثل العرائس فى حلى وفى حلل

ولا حلم قرى الأضياف من سعة الـ
أطباق إلا على الأعناق والعجل

وما خصصتم بر أهل ملتكم حتى عممتم به الأمضى من الملل

والجوامع من أحباسكم نعم لمن تصدر فى علم وفى عمل

والقصيدة تجرى كلها على هذا النسق من حسن السبك وجودة التصوير وصدق العاطفة وأثر الفجيعة والإحساس الأليم ويذكر المقريزى أنه بسبب هذه القصيدة قتل عمارة وتحملت عليه الذنوب

لم يكن التصوير الفوتوغرافى قد ظهر فى ذلك العهد ولو كان ذلك لبقيت لنا لوحات ومناظر تغنى عن وصف القلم الذى كثيراً ما يوجز فيجنح إلى الإخلال أو يطيل فيميل إلى المبالغة والإغراق

ولو كان الرسم متقدماً فى ذلك العهد ، لسلمت لنا لوحات مصرية صادقة كتلك التى يصنعها الرسامون المعاصرون أمثال : محمود بك سعيد ، وأحمد بك راسم ، وصبرى ، وعياد ، وصباغ ، وهلبرت التشيكوسلوفاكى المتمصر وغيرهم ممن يسجلون الحياة المصرية المعاصرة فى لوحات ستبقى خالدة تمثل الفن من ناحية وتسجل تاريخ الخطط المصرية من ناحية أخرى

ولقد زار القاهرة فى القرن الثامن الهجرى الرحالة ابن بطوطة صاحب الرحلة المشهورة ، وكان سلطان مصر على عهد دخوله إليها الملك الناصر أبو الفتح محمد بن الملك المنصور قلاوون الصالحى . وقد أثنى ابن بطوطة على الملك الناصر فى خلال كتابه ثناء عظيما ووصفه بأنه : « صاحب السيرة الكريمة والفضائل العظيمة » .

ولقى ابن بطوطة فى القاهرة جماعة من الأمراء والفضلاء ذكرهم فى رحلته ، ووصف فى خلال ذلك مجلس القاضى فخر الدين (وكان قبطياً ثم أسلم) ، وكيف كانت تقضى عنده الحوائج ، وتدرك لديه المطالب

وقد ترك لنا ابن بطوطة فى رحلته وصفاً مختصراً ممتعاً ليوم المحمل فى القاهرة ، وهو يرينا صورة لما كان يجرى فى هذه المناسبة القديمة فى عصر المماليك الذى جاء بعد عصر الفواطم .

وكان هذا اليوم يوماً مشهوداً ، يركب فيه القضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمحتسب ، ومعهم الفقهاء والرؤساء وأصحاب السلطان وأرباب الدولة وأهل الوجاهة ، ويقصدون باب القلعة دار الملك الناصر (سلطان مصر فى عهد المؤرخ) ، فيخرج إليهم المحمل على جمل وأمامه أمير الحج للعين لرفقة المحمل فى تلك السنة ومع الأمير عسكره وأتباعه والسقاءون على جمالهم ، ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ، ثم يطوفون بالمحمل فى أنحاء القاهرة ومصر وأمامهم المنشدون ينشدون والجماة يحدون ... وعندئذ ينبعث فى قلوب الناظرين شوق إلى الحج وتهيج عزماتهم وتتحرك دواعيهم لقضاء الفريضة الموقوتة والعبادة المكتوبة .

ومن دواعى الأسف أن ابن بطوطة لم يترك لقلمه العنان فى وصف القاهرة وما كانت عليه يوم وفوده عليها ، وإنما اكتفى من ذلك بالنظرة العابرة ، واللحظة الخاطفة ، ولو قد فعل لترك لنا وصفاً طويلاً وصورة جميلة لنواح كثيرة من القاهرة كأسواقها ودورها وقصورها وجوامعها ومحافلها ، ومساجدها ومدارسها ، وشوارعها وحواريها ، وقناطرها وجسورها ، ولعل الناحية التخطيطية لم تكن تعنيه كما عنت المقريزى وعلى باشا مبارك من بعده .

أما ابن إياس صاحب التاريخ المشهور ومؤرخ مصر الإسلامية فى آخر عصر المماليك وأول العصر التركى فقد وصف القاهرة فى عصره وصفاً لا يخلو من فائدة

ومن الحفلات التى وصفها ابن إياس فى كتابه المشهور حفلة المولد النبوى الشريف فهو يذكر أن السلطان الغورى أقام الخيمة العظيمة التى صنعها الأشرف قايتباى — وبلغت تكاليفها ستة وثلاثين ألف دينار — وقد صنعت من قماش مختلف الألوان واشترك فى نصبها بالحوش ثلثمائة رجل من النوائية ، ونصبت خارج الخيمة أحواض من الجلد قد ملئت ماء مسكراً ، وجلس السلطان فى الخيمة وحوله الأتابكى (رئيس الجند) والأمراء المقدمون والقضاة الأربعة والوجهاء من أهل القاهرة والقراء والعلماء ومد البساط الحافل بكل هنىء مرىء

وفى أيام نيابة طومان باى عن الغورى ، احتفل بوفاء النيل وكسر السد . فنزل الأمير لهذه الغاية فى سفينة كبيرة ، وتوجه إلى المقياس وعاين زيادة النيل وقدرها ، وتم الاحتفال فى سرور عاد بعده الأمير إلى مقره فى موكب حافل عظيم

وتذكرنا حوادث إخلاء المناطق الخطرة فى الإسكندرية اليوم بسبب الغارات الطائشة عليها ، بحادث إخلاء حىّ (بركة الرطلى) من سكانه ، والفرق بين الحادثين كبير ، إلا أن النتيجة كانت واحدة وهى وحشة كل من الحيين وفرار الناس عنهما . ولم يذكر ابن أياس السبب الذى حدا بالأمير (طومان باى) إلى تحريم السكن فى بركة الرطلى والمساطح ، ولا لماذا تشدد الأمير فى إخلاء هذين الحيين حتى صارا موحشين ، وغدوا بلقعين لا يسكن إليهما ساكن ، ولا يطمئن إليها ناظر ، ولا تتحرك

فيها من الأنس تسأم . ولقد خسر بذلك أصحاب الدور أموالاً كثيرة ، وأصبحت بيوتهم خاوية خالية . ولقد صوَّر الشيخ بدر الزيتونى هذه الصورة الموحشة فى شعر يقول فيه :

وأضحت بيوت الجسر خالية فلا
لصاحبها سكنى ولا واحد يكرى
وقد أصبحت تلك القصور خواليا
فيا وحشة السكان من كل ذى قصر
على بركة الرطلى نوحوا وعددوا
لما حل فيها من نكال ومن خسر
رمى الله أياماً تقضت بطيبها ونحن بمصر فى أمان وفى بشر
وكان الدوادار الكبير هو الذى أشار بهذا المنع بالنهى والأمر

وغفر الله لهذا الشاعر فشعره أصدق صورة لما وصل إليه الشعر العربى فى عصر المماليك من ركة وسخف وضعف

على أنه يؤخذ على ابن أياس أيضاً — كما أخذ على غيره من المؤرخين — أنه لم يتعرض لوصف القاهرة فى عهده فى تفصيل . ولعله كان مثل الكثيرين من المؤرخين لا يهتم إلا بالناحية السياسية أو العسكرية من تاريخه . أما ناحية الوصف والتخطيط فقد تركها لغيره ممن يهتمون بأمثال هذه المباحث . ولكن لسوء الحظ لا نعلم فيما بين أيدينا من مراجع وصفاً للقاهرة فى عهد ابن أياس . ولو قد تأخر الزمن بالمقريزى حتى شاهد مصر العثمانية لكان لنا من مادته فى الخطط فيض غزير

* * *

وندخل القاهرة بعد ذلك فى دور جديد ، وتودع عهد المماليك لتستقبل عهد الأتراك . ويظهر أن هؤلاء خربوا كثيراً من معالمها ، وليس لدى الآن وأنا أكتب هذه الكلمة نص تاريخى قاطع للتدليل على ما أقول ؛ ولكن بيتين للشاعر بدر الدين الزيتونى المعاصر للفتح العثمانى يشم القارئ منهما رائحة التخريب والتبديل فيما كان قائماً فيها من آثار

نبكى على مصر وسكانها قد خربت أركانها العامرة
وأصبحت بالذل مقهورة من بعد ما كانت هى القاهرة

فقوله خربت أركانها العامرة لم يكن ضرورة من ضرورات القافية التجأ إليها ، ولكن يلوح لنا أنه كلام فيه من الحق كثير

وإذا كان العصر التركى قد اتسم بالغموض فى كثير من حوادثه ، إلا أن بعض المؤرخين من المصريين وبعض الرحالين من الأجانب قد وصفوا مصر فى هذه الفترة الطويلة المظلمة . وابن إياس والجبرتى مرجعان مهمان لذلك العصر

وممن زار القاهرة فى ذلك العصر الفرنسى (ريتشارد بوكوك) فى سنة ١٧٣٧ م وترك كتابه الضخم « وصف الشرق وبلاد أخرى » . وكتب قبله (دى ماييه) قنصل فرنسا فى مصر كتاباً عن أحوال مصر فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر الميلادى

أما القاهرة فى عهد محمد على فقد وصفها المستشرق (لاين) فى أحد كتابيه المشهورين ، ووصف آداب أهلها وعاداتهم ولباسهم وطعامهم وشرابهم وبعض أغانيهم التى كان يقرؤها علينا تحت ظلال شجرة الكافور على نيل المنصورة قارئ أديب فيستمع إليها الأستاذان الجليلان : أحمد حسن الزيات والشيخ محمود زناتى وكاتب هذه الكلمات فى لذة ومتاع عقلى عظيم

(الحديث موصول)

محمد عبد الغنى حسن

الحياة النوجية

من الوجهتين الشريعية و القانونية

بحث دقيق فى هذا الموضوع الاجتماعى الحيوى الذى يجب على كل شاب أن يلم به

بقلم الأستاذ محمود على قراعة المحامى

٢٦٠ صفحة الثمن ٦ قروش (إذن بريد) والبريد ٥/١ قرش ونصف

يطلب من مكتبة الجامعة بشارع محمد على بمصر